

الإحساس الحاد بالآلم

في شعر الشابي

١

يختلف الشعراء في إحساسهم بالكون أو بأنفسهم أو بما حولهم اختلافاً مبعثه العمق والحدة في الإدراك والنفوذ إلى بواطنهم أو بواطن ما يصورونه . فهم ليسوا جميعاً سواء في الإحساس ، بل منهم من هو سطحي الإحساس ، لا يكاد يلمس ما يصفه إلا لمساً خفيفاً ، وهو لذلك لا يؤثر فيك إلا تأثيراً من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فشعره فاتر لا حرارة فيه . ومن الممكن أن نودع في هذا القسم مجموعة النظامين الذين لا يفعلون أى انفعال قبّل الأشياء ، وإنما هم يسجلونها في شعرهم ، كأن شعرهم صحف حسابية لأعداد وأرقام .

وفي الشعراء من يتعمقه ، ما يدركه ويحسه من ذات نفسه ، أو ما يبصره ويشاهده في الكون من حوله ، تعمقاً يصل إلى باطنه وخفايا داخله ، فنقرأ شعره ونحس كأننا في حلم سحري ، ونشعر بشيء من التشرية عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية ، لأن الشاعر يُنَفِّسُ عما في داخلنا بما يجري على لسانه من أبياته ، أو قل من مشاعره وإحساساته . فنحن عنده نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل ما فيه من اضطراب وقلق وكآل ونقص ، فالعالم ليس كمالاً خالصاً ولا نقصاً خالصاً ، بل هو مزيج منهما ، مزيج ينتظر الشاعر الذي يحسه إحساساً حاداً ويعرضه .

وبين هذين الفريقين من أصحاب الإحساس السطحي والإحساس الحاد

يقع كثير من الشعراء في مدارج وسطى . وليس من شك في أنه بمقدار ما يكون في الشاعر من مادة الإحساس تكون موهبته في الشعر ، كما يكون تأثيره في سامعيه وقرائه . وهل ضَعُفَ الشعر العربي في أواخر عصوره الوسطى إلا لضعف هذه المادة عند شعرائه فأصبحوا كالبيغاوات ، يصيحون بكلام مكرر معاد قلما فهموه أو أحسوه ، وقد أخذوا ينقلونه من هنا إلى هناك دون أى تعديل أو تحريف يُدْخِل في شعرهم شيئاً من روح أو حياة . وبذلك أصبح الشعر أشبه ما يكون بضرب من التطبيق على الشعر الموروث ، فالشاعر يؤلف القصيدة على نموذج قصيدة سابقة ، ولا يضيف إلا ألواناً باهتة من البلاغة المحفوظة ، ولا يفكر أى تفكير في حق نفسه عليه ، وأن الشعر ينبغي أن يعبر عن هذه النفس من وجه أو وجوه . ومن هنا كان شعرهم شيئاً غثاً ، وكان يشبه أكبر الشبه بركة راكدة طفحت بالأعشاب الضارة .

وَبَوْنٌ بعيد بين هؤلاء المتشاعرين وبين شاعر كابن الرومي ، نحس بأعصابه وهي تهتز وترتجف في شعره . ومن ثم لا نبالغ إذا قلنا إنه لم يحس نفسه فقط ، بل أحس كل ما حوله من دقائق الحياة . وكان المتنبي يحس العرب في أعماقه ، واندفع في التعبير عن هذا الإحساس إلى أقصى حد ، حتى أصبح فيه مضرب الأمثال . وكان أبو نواس يحب الحياة ، ومثل ذلك تمثيلاً رائعاً في وصفه وحبه للخمر التي اتخذها وسيلة لتصوير بهجته وفرحته بديناه . وكان أبو العلاء ، جيس بصره ، يجول دائماً في أحشاء الظلام جولات ردتّه إلى التفكير في مصير الإنسان المادى والروحي وما يجري في الحياة من خير وشر . فإحساسه الدقيق بألمه لفقد بصره حوله إلى العالم من حوله وما فيه من تباين ، وتناقض ، وشقاء ، وسعادة ، واستطاع ببصيرته المتوقدة أن يزيل الغشاوة عن عينيه ، بل أن يمزقها تمزيقاً ، وأن ينظر ، فيبلغ نظره

أعماق المجتمع وأعماق الكون ، وينفذ إلى كثير من أسرارهما ، بما لم يستطعه أفذاذ المبصرين من حوله .

وهذا معناه أن كلا من هؤلاء الشعراء المبدعين الذين سميناهم كان يحيى حياة فنية صحيحة ، حياة ملؤها الإحساس الحاد بأنفسهم واختلاجاتهم الباطنة وبما ينبض به المجتمع والكون من حولهم . ولذا كنت تحس عندهم بمكنون أنفسهم ومكنون عصورهم ، إذ أحالوا النظمين شعراً يفيض باللذة والفرح والسرور تارة ، ويفيض تارة أخرى بالحزن والههم والألم الدافق العميق .

٢

وأبو القاسم الشابي^١ الشاعر التونسي الذي هصر غصنه القدر سنة ١٩٣٤ ولما يبلغ الخامسة والعشرين بعد كفاح شاق مرير يذنه وبين مرض القلب (١) إذ أصيب في عنفوان شبابه بتضخم فيه . هذا الشاعر يعد قلته من فترات عصرنا الحديث في حدة الإحساس ، وعمقه ، ودقته .

لم يتعلم لغة أجنبية ، ولا خرج عن محيط بيئته ، ولكنه قرأ ، واستوعب كل ما وقع عليه من شعر قديم وحديث وأدب غربي منقول . وانطبعت في خياله عن طريق قراءاته ، وخاصة للشعراء المجددين صورة فذة للشعر ، فيها تحرر من القديم ، سواء أكان في شكل القصيدة أم في موضوعها ، فقد تخلص من رق المديح وما يتصل به واتجه إلى نفسه وإلى عصره وأمته . وشعر شعوراً واضحاً بالحق والجمال والكمال ، وظل هذا الشعور يجري في شعره تياراً مندفعاً لا ينقطع ولا يفصل عن أى قصيدة أو أى مقطوعة ينظمها . ولكن هذا الشعور ليس هو الذى استنفد شعره إنما استنفده شعور

(١) انظر « الشابي : حياته وشعره » لأبى القاسم محمد كرو (طبع بيروت) ص ٢٨ .

آخر ، هو شعوره بألمه وعلته التي أصابته في شرح شبابه .

وَمَنْ يُصابون بالمرض مثل أبي القاسم الشابي يختلفون ، فمنهم من يتألم ولكنه يحول ألمه إلى فلسفة في الحياة وإلى تفكير واسع فيما يلاحقها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء . فالألم عند هذا الفريق لا يتحول إلى نفسه والحديث عن أوجاعه ، وإنما يتحول إلى الحياة البشرية كلها وما ترتطم به من صخور الشر والظلم الصارخ .

ومن المَرْضَى من يعلو على ألمه ، بل من يحاول أن يقهر ألمه وينتصر عليه إلى النهاية ؛ فتراه ضاحكا باسماء ، كأنما تحول الألم عنده إلى لذة ، فهو لا يتشاءم بل هو كثير التفاؤل ، وهو لا يضيق بما حوله ، بل هو كثير التسامح . كل ما حوله في الطبيعة جميل ، وجماله يفقده الوعي بنفسه وما يعتصر قواه من مرضه ، وفرحته بالكون تعلو على كل آلامه ، إذ طردت من صدره كل الوسوس والأوهام التي تجيش بصدور أمثاله .

غير أن هذين النوعين نادران ، أما الكثير فيكون على مثال أبي القاسم الشابي لا يحوله الألم إلى فيلسوف ومفكر كبير ، وأيضاً لا تحوله العلة إلى ضاحك في الحياة أومبتسم ، وإنما تحوله إلى بوق كبير للعويل والبكاء وندب نفسه وحياته ندباً حاراً .

وتصادف أن كان إحساس أبي القاسم الشابي حاداً ، وجعلته حدته محبباً للحياة صَبَّاباً ، وشعر برموس أفاع تمتد إليه في طريقه ، فتمنعه من السير بل ترده إلى داره إن لم يكن إلى فراش علته ، فرجع محزوناً يُجَرَّرُ أذنيه والكآبة قد ملأت نفسه ، وملأها أيضاً الإحساس الدقيق بالكارثة وما ينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبته لواعجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه أغاني مشجية نظمها والدموع تنهمر من عينيه ؛ وهي لذلك تعد أشجى أغانيها

في العصر الحديث ، لأن صاحبها بَلَّلَهَا بدموعه وهو يكتبها ، ولأنها تصور
ألماً حقيقياً ؟ بل لأن صاحب هذا الألم كان حاد الحس ، فسقط لا على
الألفاظ التي تمثل ألمه ، وإنما على الإبر التي تلسع ، وحمى الإبر في نيران قلبه
فأصبحت تكوى وتلدع . واسمعه يغنى « أغنية الأحران » .

حطمتُ كَفُّ الأسي قيثارتى

في يد الأحلام

فقطعتُ صمتاً أناشيد الغرام

بين أزهار الخريف الذلويـه

وتلاشت في سكون الإكتئاب

كصدى الغريريد

كُفَّ عن تلك الأغاني الباسمه

أيها العصفور

فحياتي ألقتُ لحن الأسي

من زمان قد تقضى وعسى

أن يشير الشَّدْوُ في صمت الفؤاد

أنه الأوتار

لا تغنيني أغاريد الصباح

بلبل الأفراح

ففؤادى وهو مغمور الجراح

بتباريح الحياة الباكـيه

ليس تستهويه ألحان السرور

وأغاني النور

إن من أصغى إلى صوت المنون
وصدى الأجداث

ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحره
وابتسامات الحياة السافره
عن جلال الله

غَنِّني يا طير أنات الجحيم
واسقني الآلام

واترع الكأس بأوجاع الحياه
واسقني إني كرهت الإبتسام
غَنِّني ندب الأمانى الخائبه
والليالى السود

غَنِّني صوت الظلام المكتتب
إني أهواه

ولا شك أننا نشعر في أثناء قراءتنا لهذه الأغنية بوخز الألم في صدره ،
فقد تحطمت قيثارته ؛ حطمتها كف الأسى في يد الأحلام ، وذابت
نغمات الغرام بدينياه في غمرة هذا التحطيم . إن المرض يطعنه في الصميم ،
في قلبه ، وهو يتطلع إلى الحياة كشمس تغرب تحت عينيه ، وإنه ليعجب فيم
غناء العصفور ؟ إنه لا يبعث في نفسه حنيناً ولا بشيراً ولا حُبّاً ، إنه
لا يبعث إلا الذكرى التاعسة ، وإلا أنه الأوتار . وهو لا يريد بعد اليوم أن
يرى الصباح ، ويسمع بلبل الأفراح ، فحياته أصبحت ظلاماً مطلقاً لا تعرف
النور ولا تطيق السرور ، وكيف تعرفهما والمرض ينشر أجنحته السود
فوقها . ولا تلبث رياح الخوف والذعر أن تهبَّ عليه من كل مكان ، إذ يرهف

سمعه ، فلا يسمع سوى أصوات الموت المدوية وأصداء القبور المربعة ،
وإنه ليفزع سمعه قرعُ أجراس تقترب من بعيد ، بل من قريب ، في
أحشائه وسويداء فؤاده .

وهذا كله يرهف جسده وأعصابه ، فيبكي ويعلو بكأؤه ، ويتجه إلى الطير
يطلب إليه أن يهجر غناؤه الفرح القديم إلى أنات الجحيم ، ويسكب في كموسها
الآلام وأوجاع الحياة ، حتى ينهل منها ما يشفي ظمأه ويطفىء غلَّتته ،
ويطلب إليه في أسى وحسرة أن يندب له أمانيه الخائبة ولياليه السود الموحشة ،
مرتلاً صوت الظلام الكئيب ، فقد أشرفت الحياة على المغيب ، في لجة
الظلام العميق .

ولم يستطع شيء أن يرد الشابي عن هذا الشعور بخيبة الرجاء ، فالعلة
تعصف بقلبه ، وهو يراقب آماله بالحياة وأحلامه ، فيراها تتساقط على نحو
ما تتساقط أوراق الخريف ، ألا فليبك ولا يرسل الدمع مدرارا ، وما قصيدته
أو أغنيته « ماتم القلب » إلا حبات من هذا الدمع الذي يتناثر دائماً من
عينيه ، وفيها يقول :

في الدياجي

كم أناجي

مسمع القبر بغصًا ت نحبي وشجوني

ثم أصغى علّني أس مع ترديد أنيني

فأرى صوتي فريد

مات حبي

مات قلبي

فاذرفي يا مقلة اللئ ل الدراري عبرات

فوق قلبي فهو قد ودّع أوجاع الحياة

بعد أن ذاق اللهب

وليس هذا الحب الذى يرثيه مع قلبه إلا حبه للحياة ، وما حبيبته التى يرثيها فى شدوه إلا دنياه وما يتألق فى بصره من جمالها الذى يسطع على الأشياء والأشخاص من حوله . وإنه ليريد أن يعانق هذا الجمال بكل جوارحه ، فترده يد سوداء تخرج له من الظلام ، تنهأ أن يقترب ، فيبكي ويئن ، ويشعر كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فرت من تحت بصره ، ولم يعد له إلا كهوف الموت يتعثر بين صخورها . وبالبؤس الحياة حين يضغط المرض على قلب شاعر وصدرة ، فتسود الدنيا فى عينه ، ولا يجد ما يفرج عن كربته ، أو يكشف عن غمته ، حتى أمانيه فإنها تهوى متساقطة تساقط الشهب ، وماذا بقى للشبان من دنياه ؟ إنه لم يبق له إلا الظلام الموحش وإلا الرؤى المزجة والأشباح الخيفة ، أشباح الموت القاسى الغاشم الذى لا يرحم :

أرأيتَ شحور الفلا	مترنما بين الضفون
جمد النشيد بصدرة	لما رأى طيف المنون
فقضى وقد غاضت أفا	ريد الحياة الطاهره
وهوى من الأغصان ما	بين الزهور الباسره
أرأيت أم الطفل تب	كى ذلك الطفل الوحيد
لما تناوله بعن	ف ساعد الموت الشريد
أسمعت نوح العاشق الـ	ولهان ما بين القبور
يبكى حبيبته فيا	لمصارع الموت الجسور

فالدنيا من حوله ليس فيها إلا شبح الموت ، وبصره يشاهد هذه الأشباح جائمة على صدر كل شئ : الشحارير والأطفال والمعشوقات ، فيستغيث ويستجير ، ويأخذه الفزع من كل جانب . ولم يكن هناك وقت يزدحم عليه فيه الفزع كالليل ، إذ كان ينهال عليه المرض فيه جليداً ووخزاً وطعناً ،

وكأنه سياط من نار أو كأنه سيوف حامية ، فكان يخافه ويرهبه ويرتجف حين يدنو منه رجفة شديدة ، حتى ليطير عقله أحيانا ويطير صوابه ، إذ يشعر كأنه سيخنقه خنقا . وأغنيته « أيها الليل » تصور محنته به ، وفيها يقول :

أيها الليلُ يا أبا البؤس والهـوِ ل ويا هيكَل الزمان الرهيبِ
أنت يا ليل ذرَّةٌ صعدتْ للـ يكون من موطن الجحيم الغضوبِ
يا ظلامَ الحياة يا لوعة الحـز ن ويا معزف التعليس الغريبِ
فيك تنمو زنايقُ الحُلُم العـذ ب وتذوَى لدى لهيب الخطوبِ
وبفـوهِ دَيْك في ضفائرك السـو د تدبُّ الأيام أيَّ ديبِ

فالليل عنده رمز البؤس والهول وعذاب الجحيم ، وأي عذاب ؟ إنه عذاب المريض الذي تغلق عليه دائرة حياته ولا تفتح إلا للألم والوجع . وإنه ليحس في أثناء ذلك بالعزلة في هذا القنص الضيق الذي مُسِجِن وراء قضبانهِ إذ أصبح غريباً عن الحياة وسط دياجيرهِ ، بل وسط لهيبهِ الذي تتناثر فيه زنايق أحلامهِ ، وإنه ليسير وقد أسر الأيام والآمال في ضفائره السود ، التي تشبه أدق الشبه الأغلال والقيود . ويجمع الشابي أمره وينظر في كل هذا الهول إلى أعماقه ، وسرعان ما يقول :

سَدَّتْ في سَكينة الكون للآء ماق نفسى لحظاً بعيدَ الرسوبِ
نظرة مَزَقَّتْ شغاف الليالي فرأتْ مهجة الظلام الهيوبِ
ورأتْ في صميمها لوعة الحـز ن وأصغَتْ إلى صراخ القلوبِ
إنما الناس في الحياة طيورٌ قد رماها القضا بوادٍ رهيبِ
يعصف الهولُ في جوانبه السـو د ليقضى على صدى المندليبِ

فهو يسدد نظره إلى الليل فلا يرى فيه إلا أمواجاً من الظلام قد رسبت في أعماقها لوعات الحزن وآلامه وعويل القلوب وصراخها ، هذا الصراخ الذي يطن في قلبه طنين ناقوس . وما يلبث أن يلتقي سلاحه ، ويستسلم ، قائلاً : إن

الناس في الحياة طيور رماها قناص القضاء في وادي الحزن والألم حيث يعصف الهول والرعب في جوانبه الداجية ، وحيث الموت فاغر فاه ، يلتهم كل من يلقاه .

وعلى هذه الشاكلة أغاني الشاي ، فكلها حزن وبكاء ، وكلها ثمرة هذا الألم الذي كان يعصر قلبه عصراً . وكأن هذا الألم هو مبعث وحيه ومنبع شاعريته ، فلولا ، على ما يظهر ، ما تحركت في داخل نفسه الباطنة عبقريته الشاعرة ، واقرأ فيما نُشر وُجِع من أغانيه وأشعاره فستراها كلها نبتت في تربة الألم ، وتميلت أغصانها في ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه .

٣

ولم يقف إحساس الشاي الدقيق بالألم عند نفسه ، بل تعداها إلى أمته . إذ وجدها ترزح تحت كابوس الاستعمار الفرنسي وتستشعر منه ألماً مريراً ، وهو ألم ينبعث من قلبها وصميمها كما ينبعث ألمه من قلبه وصميمه ، فقد أذهلها الفرنسيون ، وحوّلوا حياتها إلى جحيم لا يطاق .

وكان الشعب التونسي في مجموعه كالنائم ، لم يستيقظ منه إلا الأقلون عدداً ، ثاروا لأمتهم وثار معهم الشاي ثورة تغلغت في أعماقه ، إذ تصادف أن كان معلولا ، فأحس إحساساً دقيقاً بعملة أمته وبالمرض السياسي الذي يطحنها — طحن الرّحى — تحت أنيابه . إنه الاستعمار البشع العاشم الذي ألقى بكلاكله على صدر أمته ، وإنها لتذوق منه ومن ظلمه وبطشه الأمرين ، فترفع رأسها تريد أن تحيا حياة حرة كريمة ، فينهال عليها ضرباً وطعنات ، حتى تخرّ مهبطه ، وهي تن أذن الشكلى . ويهب الشاي في وجه المستعمر ، فيلطمه بمثل قوله :

ألا أيها الظالم المستبدُّ حبيب الفناء عدوّ الحياه
سخرت بأثّات شعب ضعيف وكشّفت مخضوبته من دماه.

وعشت تدنّس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه
 رويدك لا يخذعك الربيعُ وصحو النضاء وضوء الصباح
 في الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح
 ولا تهزأن بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يجنّ الجراح
 تأمل هنالك أنى حصدت رءوس الورد وزهور الأمل
 ورويت بالدم قلب التراب وأشربت الدمع حتى ثمل
 سيجرفك السيل سيلُ الدماء ويأكلك العاصف المشتعل
 فهو يسجل على عدو شعبه ظلمه واستبداده وما يسفح من دمائه الزكية ،
 وإنه ليدنس رباه الطاهرة بما يغرس فيها من شوك الأسى والألم . ويقول له :
 مهلا ، لا يخذعك ما ترى من الصحو وابتسام النور في الربيع ، فستعصف بك
 عما قليل ريح صرصر عاتية تجرفك هي وأمواج الدماء التي أسلتها دموعا
 حمراء في جنبات الوطن . إن كل ذلك سيلتف بك ويتداعى في جوفه ابتلاء .
 وهذا الشعر السياسي أو الوطني كان منتشرا في كل بلاد الشرق الأوسط
 في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ في هذه البلدان ما بلغه الشابي
 في تونس . حقا نجد عند حافظ والرصافي وأضربهما تعبيراً سياسياً أو
 وطنياً مستحدثاً في لغتنا . ولكننا لا نجد عندهما هذا الإحساس الحاد الذي
 يجعل الشاعر يحس أمة بأسرها ، ويحس آلامها وأوجاعها تلقاء المستعمر
 الظالم ، فينتفض ، ويزأر في وجه الغاصب زئير العاصفة ، على نحو ما زأر
 الشابي إذ يقول :

ألا أيها الظلم المصعّرُ خذهُ رويدك إن الدهر يبنى ويهدمُ
 أغرك أن الشعب مُغضٍ على قَدَى

لك الويل من يوم به الشرُّ قَشَعَمُ
 سيثار للعزّ المحطّم تاجُهُ رجالٌ إذا جاش الرّدَى فهمُهم

رجال يرون الذل عارا وسبةً ولا يرهبون الموت والموتُ مقدم
ألا إن أحلام البلاد دفينَةٌ تجمِّجُ في أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتي بعد لأىِ نشورُها وينشق اليوم الذى يترنم
هو الحق يبقى راكداً فإذا طغى

بأعماقه السخطُ العصوفُ يدَمِّمُ
وينحطُّ كالصخر الأصم إذا هوى على هام أصنام العتوِّ فيحطم
وهو فى هذا الزئير الذى يدمدم فيه دمدمة الأسد لا يقف فى صف أمته
فحسب ، بل هو ينطق بلسانها وروحها ، ويعبّر عن ضميرها ومكنون
أحلامها وأنها لا بد يوماً أن تنار لكرامتها وحريتها التى ذبحها المستعمر ذبحاً
وولغ فى دمها ، وما يزال الدم عالِقاً بفمه . إنه يوم البحث والنشور ، يوم
الحق الذى يهوى فيه نجم الباطل .

وإذا كان الشاى هان يوماً وذلك أمام مرضه الذى يعيث فى قلبه ، فإنه
لم يهن ولم يذل أبداً أمام المستعمر ، بل ظل قويا متحفزا ، يريد أن ينشب
أظافره فيه ، بل أظافر شعبه . ومن أروع ما يصور ذلك أنشودته « إرادة
الحياة » وفيها يقول :

إذا الشعب يوماً أراد الحياةَ فلا بد أن يستجيب القدرُ
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسرُ
ومن لم يعانقه شوق الحياةَ تبخرَ فى جوها واندثر
كذلك قالت لى الكائناتُ وحَدَّثتى روحها المسترُ
ودمدت الريحُ بين الفجاجِ وفوق الجبال وتحت الشجرُ :
إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ لبستُ المنى وخلعتُ الحذرُ
ولم أتخوَّفْ وعور الشعابُ ولا كبةَ اللهب المستعرُ
ومن لا يحب صعود الجبال يعشُ أبد الدهر بين الحفرُ

وأطرقت أصغى لعزف الرياح وقصفت الرعود ووقع المطر
وقالت لى الأرض لما تساءا يا أم ! هل تكرهين البشر ؟
أبارك فى الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يمشى الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حتى يحب الحياة ويحتقر الميت المندثر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر
فويل لمن لم تشقه الحياة من لعنة العدم المنتصر

وهذا شعر كله قوة ، وكأن الشابي يريد به أن يبعث أمته ، فلم
نفسه ونفخ فى الصور ، لعلها تحيا من جديد ويحيا معها ميت الأمل . إنه
يريد أن ينقذ الضحية من يد جزارها ، وهو يدفعها ، لعلها تثور ثورة
فيها جرأة وفيها مخاطرة ، حتى تفتدى نفسها ، بل حتى تنار لكرامتها وعزتها
الطريجة . ويستمر الشابي فى بقية الأنشودة مقبلا على دنياه ، فهو طموح ،
قد خلع عنه رداء التشاؤم ، وكأنما أحس الحياة ، وتألفت فيه إرادتها ،
وأراد أن يعكسها على أمته اتب من رقادها ، وتنفض غبار النذل
والاستخذاء عن بصرها وبصيرتها . ويمر به الليل فلا يؤذيه ، بل ينتشى فيه ،
ويسكر من ضياء نجومه وديناغيه ، ويشعر بظمئه للنهل من نهر الحياة ،
ويقبل عليه يريد أن يعب منه ، كما يقبل على النور يريد أن تكتحل به عيناه .

٤

وهذه الأوقات التى كان يتطهر فيها الشابي من ألمه ، والتي يمكن أن نسميها
أوقات نقاهته ، لم تكن كبيرة ، فقد كان يغمره دائما ضباب العلة وظلامها .
ولكن من حين إلى حين كان يبرق فى سمائه وميض الأمل بالحياة ،
فيتحول إلى عدو شعبه ، وإلى شعبه نفسه ينفخ فيه ، ويصيح بأعلى صوته
فى روحه وضميره غاضباً ثائراً .

ولم يكن يشور لشعبه من دونه، بل كان يشور أيضاً لنفسه ثورات شخصية.
فقد أصيب بقوم يمتقونه، ولا يقدرّون له أدبه وشعره، فكان هذا يحزّ
في صدره، وكان إذا عادله شيء من نقاهته حوّل بصره إلى خصومه فأنشدهم
أناشيد مدوية تأخذ بأسماعهم وأبصارهم من مثل « نشيد الجبار » وهو
يسمّله بقوله :

سأعيش رَغْمَ الداءِ والأعداءِ	كالنَّسر فوق القمة السَّمَاءِ
أرنبو إلى الشمس المضيئة هازئاً	بالسَّحْبِ والأمطار والأنواءِ
لا ألمحُ الظلَّ الكئيبَ ولا أرى	ما في قرار الهوة السوداءِ
وأسير في دنيا المشاعر حالماً	غَرِداً وتلك طبيعة الشعراءِ
وأقول للقدر الذي لا يثنى	عن حَرْبِ آمالي بكل بلاءِ
لا يطفئ اللهبَ الموجَّجَ في دمي	موجُ الأسى وعواصف الأرزاءِ
فأهدم فؤادي ما استطعت فإنه	سيكون مثل الصخرة الصماءِ
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا	وضراعة الأطفال والضعفاءِ
ويعيش كالجبار يرنو دائماً	للفجر، للفجر الجميل النائي

ويمضى في هذا الصوت القوي معلناً أنه لن يهتم بالقدر وما يضعه
في طريقه من مخاوف الليل وزوابع الشوك وصواعق البؤس، فسيسير
بروح حالم متوهج بالنور، ولن يُسَلَقَ بالآل ولا اهتماماً لما ينشره حوله من
ظلام حالك. وحتى إن هو وافاه القدر المحتوم فسيكون سعيداً لتحوله عن
عالم البغضاء والآثام وهذه الوجوه المغبرة من أعدائه الذين يودون لو تداعى
بناؤه، بل إنهم ليشعلون النار يريدون أن يشعروا عليها أشلاءه، ويتوجّه
إليهم بخطابه :

إن المعاول لا تهدّ مناكبي والنار لا تأتي على أعضائي
فارموا إلى النار الحشائش والعبوا . يا معشر الأطفال تحت سمائي

وكان يألم — على ما يظهر — أشد الألم لما ينهش هؤلاء الخصوم من لحمه وعرضه ، وكأنه لم يعرف أن هذه عادة النفوس الصغيرة ، فأصحابها كالباتات الطفيلية ترى الشجرة الباسقة وقد علت رأسها وتمادت في السماء ، فتلثف بها تريد أن تصعد إليها ، وتود لو تجهز عليها ، حتى تستريح منها ومن علوها ! وما بأيديها ولا بأيدي أعداء الشابي وأمثاله أن يمنعوا صعود الأشجار إلى عنان السماء ، وما كان لهم أن يطفئوا نور عبقرية من العبقریات أراد الله لها برغم أنوفهم أن تضيء وتتألأ ويخطف سناها الأبصار ، وينتشر من حولهم في البقاع والأمصار .

وهكذا لم يكن الشابي يلقي خصومه بشيء من التسامح ، فقد كان حادّ الحس والشعور ، فتحول يقدفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمى رؤوسهم ، ووسع الدائرة التي يقدف فيها بحجارته ، فلم يقف بها عند طائفة معينة من شعبه ، بل عمّ بها الشعب في ساعة من ساعات غضبه ، فإذا هو يصب عليه طوفانا من الأحجار ، حتى ليقول :

أيها الشعب ليتني كنت خطأ	بأفاهوى على الجذوع بفأسى
ليت لي قوة العواصف يا شعد	بي فأتى إليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكن	أنت حتى يقضى الحياة برؤس
أنت روح غيبية تكره النور	روتقضى الدهور في ليل مأس
في صباح الحياة ضمخت أكو	بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها إليك فأهرة	ت رحيق ودُست يا شعب كأسي
ثم كنضدت من أزهير قلبي	بأقة لم يمسه أي إنس
ثم قدمتها إليك فزقت	ت ورودى ودُستها أي كؤس
ثم ألبدستني من الحزن ثوبا	وبشوك الصخور توجت رأسي
ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعد	بي لأقضى الحياة وحدي بيأس

ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه إلا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترا فصبَّ جام سخطة عليه، حين رآه لا يعرف مواهبه، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التي ينبغي أن تُستقبل بها. وربما كانت ثورة خاصة وعمَّما فهو يشور على خصومه من ذوى النفوس الدنيئة، ويتسع بشورته إلى الشعب جميعه. وعلى كل حال هي ثورة عابرة في أشعاره، ومثلها مثل الدوامة تظهر على نهر النيل، ثم تَمَّحِي في مياهه بعد قليل. وكانت مياه الشابي كدرة، كدرها المرض والامه.

ولم ينفعه أن يعزل شعبه إلى الغاب أو إلى الطبيعة، فهناك أطلَّ عليه عذابه، وأطلَّ عليه الظلام ووحشته وهمومه، وعاوده بؤسه وشقاؤه، فتناول الناي. وعزف عليه لاجما من «الأشواق التائهة» :

يا صميمَ الحياة إني وحيدٌ مدلجٌ تائهٌ فأين شروقك ؟
يا صميمَ الحياة قد وجمَ النَّا يٌ و غام الفضا فأين بروقك ؟
كنتُ في جفرك المغلف بالسَّحْ رِ فضاء من النشيد الهادى
وانقضى الفجر فاندردتُ من الألف ق ترايا إلى صميم الوادى
وهو في هذه الأنشودة يرثى نفسه ويبكى أمسه، إنه أصبح على شفا جُرُف من الهاوية، وهو يراقب نبضات قلبه، وينظر في السماء، فلا يلح له أى أمل بالبقاء. بل إن رُجُومها جميعا توحى له بأن الساعة قد دنت، وأنه موشك أن ينتقل إلى الحياة الأبدية، وقد أصبح لا يخاف ولا يفزع، بل إنه يتحول إلى مصيره في هدوء، وهو يتغنى أنشودته « في ظل وادى الموت » وفيها يقول :

وتغشَّى الضبابُ نفسى فصاحت فى ملالٍ مرٍّ إلى أين أمشى ؟
قلت سبرى مع الحياة فقالت : ما جَئِنَّا تَرى من السير أَمْس ؟
فتهافت كالهشيم على الأر ضٍ و ناديت أين يا قلبُ رَفْشِي

هاته علّنى أخطئ ضريحى فى سكّون الدجى وأدفن نفسى
 إنه يمهّد لرقاده الأخير . فقد أصبح كورقة ذابلة تنهيا للسقوط ، ولن
 يمسه همسٌ ريح حتى تهوى فى خضمّ اللانهاية ، ولم يعد ذلك يقلقه ، فقد أفقده
 المرض شهوته المتفتحة للحياة وإقباله المتحمس عليها ، بل لقد ملّها وزهد فيها
 إذ لم تعد تحمل إليه من جديد سوى رصيد دائم متصل من الألم لا ينقطع
 تياره فى قلبه وسويدائه . لقد أصبح يكره الحياة ، وأنه يريد منها الخلاص ،
 حتى ينجو بنفسه من شرورها وأوجاعها المبرحة ، وهو لذلك يستقبل الموت
 راضيا مطمئنا ، بل إنه ليمسك بنايه ، يتغنى عليه أنشودته «الصباح الجديد» :

اسكتى يا جراح واسكنى يا شجون
 مات عهد النواح وزمان الجنون
 وأطلّ الصباح من وراء القرون

وكأنه يحس بالموت سيحقيقه من أحزانه ، وينجيه من أوصابه ، فتندمل
 جراحه ، وتسكن شجونه ، وتجنّف دموعه ، وتحمى الظلمات التى كان يجوبها
 فى ليله ونهاره ، فتلك تباشير الصباح توشك أن تطردها من حوله إلى غير
 رجعة ، وهو يتغنى فرحا سعيدا :

الوداع الوداع يا جبال الهموم
 يا ضباب الأسى يا فجّاج الجحيم
 قد جرى زورقى فى الخضمّ العظيم
 ونشرت القلاع فالوداع الوداع

وهكذا ذوت تلك الزهرة ، وهى لا تزال فى برعومها أو فى كمّها ، ولما
 يكتمل تفتحها ، ولا تتمّ شذاها وعطرها ، إذ ظل المرض يمتص رحيقها ،
 حتى تفتت قبل الألوان .